في رحاب العمل مع:
(محمد بن أحمد الرشيد)

د. أحمد بن سعد آل مفرح

هنيئـاً لأبـي أحمد حجم الحب والوفاء والذكر الحسن، وإنـي لأخال أن كل من عرفه يذكره دائماً، وفي مواقف عدة، فلا يشعر أحدنا إلا وهو يتحدث عنه وعن مناقبه ومواقفه، فتلهـج الألسن تلقائيّاً له بالدعاء والثناء، وهذا لعمري المكسب الحقيقي لأي مسلم وضع أمامه تقوى الله والسعي للفوز بما عنده جل وعلا.

التقيـت معاليه أول مرة بمكتبه بالطائف في صيف ١٤١٦هـ (أول سنة له بالوزارة) بعدما أوصدت بيروقراطية بعض مسؤولي الوزارة الباب أمامي لتمديد إجازتي الدراسية دون مرتـب سنة خامسة؛ لاستكمال بحث رسالة الدكتـوراه، وعلمت أن معاليه بالطائف، فشددت الرحال، ومكثت بمكتبه لحين صلاة العصر، حيث يخرج للصلاة، ومن ثم يغادر مكتبـه، بعدمـا ألححت على مدير مكتبه بضرورة مقابلتـه شخصيّاً، فرفض أن أدخل إلا إن أحببـت انتظاره لحين ينتهي من اجتماع مع مسـؤول من الخدمة المدنية، ويخرج من مكتبه، فانتظرته، وقابلني بابتسامة أدخلت السرور على نفسي، عرفته بنفسي وتخصصي والجامعـة التـي أدرس بها فـي أمريكا ورغبتي إمـا بالتمديد أو قبـول الاستقالة، وأكدت لـه أننـي أجمع المادة العلمية لبحثـي وأنه مركز على تطوير البرامـج التدريبية لمديري المدارس وأنني في سنتي الأخيرة، وقد درسـت السنوات الماضية على حسابي وبإجازة دراسيـة دون راتـب... أنصت إلـي جيداً، ثم بـدأ بالاستيضاح عـن التخصص والبحث والعينة والمتوقع منها وانعكاسها على التعليم في المملكة... ثم ما لبث أن استدار لمدير

عضو مجلس الشورى - مدير عام الإشراف التربوي بوزارة التربية والتعليم سابقاً.

مكتبـه وباستغراب تام يتساءل: كيف نقف أمام من يسعى للرفع من تأهيله في تخصص تحتـاج إليه الـوزارة وبدرجة علمية عالية ومن جامعة معروفـة دون كلفة ريال واحد على الـوزارة! ثم قـال: أنهوا معاملته سريعاً بالموافقة، والتفت إلي، وقال: «تعود العام القادم بعـد تخرجـك، وتأخذ توجيهك منـي شخصيّاً بحـول الله، وهذا وعد منـك!» وكان لأبي أحمـد ما أراد، فعدت مباشرة بعد التخرج، وذهبت لمكتبه، وألح علي بالبقاء في الوزارة واختيار المكان الذي أريد من بين كثير من الخيارات، كان من ضمنها التدريب التربوي، ووكالة كليات المعلمين بالوزارة، فكان الأخير هو خياري.

تعمقت معرفتي به عن قرب بعد ذلك، فلاحظته يدنيك منه؛ لست وحدك... ويصغي لحديثـك؛ لست وحدك... ويحاورك في فكرتك؛ لسـت وحدك كذلك، ولكنه كان يميزك بإبداعاتك، ويحلق بك في فضاء لا حدود له إلا السماء، راجياً أن يكون فيما تقترحه من أفكار تدفع بتطوير العمل التربوي، فيدفعك للانطلاق والتوثب بثقة متناهية معتمداً على الله ثم على قدراتك لتحقيق رؤيتك وطموحك المهني والوظيفي. كان مهتمّاً جدّاً بأهمية بنـاء الشخصية القياديـة المخلصة والقويـة والمتخصصة، القادرة علـى العمل ضمن الفريـق الواحد المتناغم والمنسجم، وقد كان توحيد الرؤية ديدنه مهما تعددت الوسائل لبلوغ الغايات التي يعتبرها أدوات يملكها الجميع بتفاوت، ويمكن الاستفادة منها جميعاً.

كل ذلـك يعكـس مهارات وإمكانـات معاليه الإداريـة التي نجح فـي ترجمة نظريات الإدارة الحديثـة إلى ممارسة ملموسة على أرض الواقع؛ فجل ما تعلمته، وما اطلعت عليه من نظريات في الإدارة العامة والتربوية - بحكم تخصصي - وجدتها واقعاً حيّاً في إدارة أبي أحمد.

عـزز أبـو أحمد - كمـا كان يحبـذ مناداته - فيمن حولـه معاني الانتمـاء والاعتزاز بالديـن والثقافـة واللغة، والحرص على الوطـن ومقدراته ومكتسباتـه وأهمية أن يسهم كل فـرد للنهوض به، وحرص على تملك منسوبي الوزارة لأدوات التربية والتعليم وحسن توظيفها، وأكد مراراً ألا تكون مهنة التعليم مهنة من لا مهنة له.

كان يملك ضميراً حيّاً ومشاعر فياضة يغمر بها من حوله، فكم هي المرات التي يسأل عند انتهاء أي لقاء عام بمشرفين أو مديرين أو معلمين عن سير اللقاء خصوصاً إذا شعر أن أحداً من الذين تداخلوا معه من خلال طرح أسئلة أو تعليق أو غيرها اشتد معه في الحديث، أو حدث سوء فهم معين. كان يحاول استيضاح وفهم الموقف وتصحيح الخطأ، فيستمع بإنصات لوجهات نظر من معه حيال ذلك، ولا يستنكف أن يعترف بالخطأ إن حدث، دون تردد. وفي المقابل له مواقف حاسمة من القضايا الوطنية معروفة. فلغرض اجتماع بوفد من الكونجرس الأمريكي يرافقهم السفير الأمريكي بالمملكة بمكتبه بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، دعا عشرة من قياديي الوزارة الذين تخرجوا من أمريكا وبريطانيا لحضور الاجتماع، وكنت من ضمنهم، فاجتمع بنا قبل وصول الوفد استعداداً للقاء، ودار الحديث حول ما نتوقع منهم من أسئلة وكيف يتم معالجتها، وعند بدء الاجتماع أتاح الفرصة لكل واحد منا التعريف بنفسه ومنصبه وتخصصه والجامعة التي تخرج فيها، ثم بادر معاليه رئيس الوفد بأسئلة مباشرة وبنبرة قوية؛ ماذا تريدون منا؟ ومن أنتم لتسمحوا لأنفسكم بالتدخل في مناهجنا وتعليمنا؟ وكيف يحاكم مجتمع بأكمله بعمل مجموعة صغيرة لا تمثل ديناً ولا شعباً ولا حكومة؟! لقد رأيتم هؤلاء زملائي - قادة العمل في الوزارة - تخرجوا في جامعات الغرب وهم من مخرجات مناهجنا التعليمية، وهم اليوم يحملون مسؤولية التطوير والتحديث مع الأخذ في الحسبان كل مستجدات العصر الموجودة لديكم أو في أقصى الشرق، فالحكمة ضالة المؤمن. وهم مؤهلون لتلمس ما يخدم مجتمعهم ووطنهم وفقاً لمقتضيات الحال والظروف الراهنة، ولا ينتظرون أي إملاء من أحد مهما كان. لقد أُلجِم الوفد بعبارته وتلعثم رئيسهم، فماذا عساه أن يقول؟، فما كان منه إلا أن وجه الحديث إلى عموميات ومناقشات بروتوكولية يجيدها كل سياسي.

وفي أحد اجتماعات اللقاء السادس للقيادات التربوية بعسير عام ١٤١٨هـ، أطلق أحد مسؤولي الوزارة حينها فكرة إدخال الموسيقا في بعض مراحل التعليم، فهزت

الفكرة جوانب القاعة الكبرى بفندق الإنتركونتننتال بالسودة، وتعالت طلبات الكلام بين مؤيد ومعارض، فجاء رد أبي أحمد سريعاً وحاسماً بعدم مناقشة الموضوع لتعارضه الواضح مع نظامنا التعليمي ولا مجال لفتحه للمناقشة.

كان يشارك من حوله أفراحهم وأتراحهم بالحضور الشخصي أو الاتصال الهاتفي دون تمييز، رشحت من قبل لجنة عليا في الوزارة لمنصب المدير العام للتربية والتعليم في إحدى مناطق المملكة، وكان يرغب في بقائي في الجهاز المركزي، غير أنه عندما علم أنها رغبتي دعم توجهي وسعى لتحقيق رغبتي في الانتقال من الرياض، وتابع تفاصيل الترشيح والتواصل مع سمو أمير المنطقة، وكذا متابعة مقابلتي لسموه وحرصه على إبلاغه مباشرة بعد خروجي من المقابلة وإفادته بما جرى. وعند خروجي اتصلت بمكتب معاليه بحسب الاتفاق، وكان في اجتماع، فجاء الرد مباشرة، شعرت من خلال عبارته وكلماته بحنان وشفقة الوالد ودفء مشاعر الأخ الكبير. عدت اليوم التالي للوزارة، وحضرت اجتماع قيادات الوزارة الأسبوعي، وعند الخروج قال لي: إن القرار سيصدر لزميل آخر، وقال وقد ربت على كتفي: «الخير دوماً يا أحمد، فيما يختاره الله، ومكانك في الجهاز المركزي عندي أهم، وسيعوضك الله خيراً». ذكرني بذلك الموقف عندما اتصل بي -وقد ترك الوزارة - يهنئني بثقة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز رحمه الله بتعييني عضواً بمجلس الشورى في الدورة الرابعة، معبراً عن مدى سعادته لي بذلك التشريف. حقاً لقد كان الدكتور محمد الرشيد مدرسة فريدة في القيادة، والوفاء، والعلاقات الإنسانية.